المشي في الطين

عصام زكريا

كنتُ أستند بثقلي كلِّه على قدمي اليسرى. والقدم اليمنى معلّقة في الفراغ. يستند سنّ الحذاء الميريّ الواسع على قدمي اليمني، الضيّق على اليسرى – على ساق المقعد المقابل، ويداي معلقتان – كلتاهما – بالعمود المعدنيّ الممتدّ أفقيّاً فوق الرؤوس. أمسك باليد اليمنى «البيريه» الصوفي الخشن ومجلةً اشتريتُها من محطة قطار رمسيس. داخل عربة الأتوبيس، الجوّ دافئٌ مُقبض، وشعورٌ كأنه ارتياح الاستسلام للدفءِ يسري.

وفي الشوارع الجوُّ مغيّم معتّم بارد، مخنوق وعلى وشك التفجّر بالمطر. رأيتها، في موجة الصاعدين ينحشرون بين حدّي الباب الضيّق. كانت تجاهد وسط الصاعدين، تمدّ يديها في استحياء نحو ركن الباب تحاول التمسّك به. يهيش شعرها وتنكمش ملابسها وفي عينيها رجاء، أختي. انقبض قلبي وشملني حرجٌ لا أعرف له سبباً. كأنما أتلقّى مفاجأة غريبة الوقع على نفسي. غبتُ عن حضوري ثانيةً، ثم بسلوك تنقصه الحرارة أشرتُ لها بيدي. لمحتْني فلمعتْ عيناها بالفرح والدهشة. وتقدّمتْ وسط الزحام تشقّه، إلى أن وصلت إليّ بعد عناء. تزحزحتُ عن مكاني لأعطيها موقعي وتراجعتُ خطوة لأصبح خلفها، وكأنّما أحميها. بحثت عن كلمات أقولها. سألتها: من أين هي قادمة، مع أن ملابس المدرسة الكحليّة وحقيبة الكتب على كتفها تعني ببساطة أنها عائدة من المدرسة. أجابتني: من المدرسة. فقلت: ولماذا تأخرتِ هكذا؟ كانت الساعة حوالي الرابعة بعد الظهر. فأجابتْ بأنها كانت في درس خصوصيّ بالمدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي. ثم ساد الصمت. شعور لم يكن مريحاً كنت أحسّه، عندما يجمعني مكان عامّ مع أفراد أسرتي، خاصة النساء. مزيج من الغيرة عليهن تجعلني متحفّظاً ومتربّصاً. وحصر داخلي يحدّ من انطلاقي وعفويّتي، خوفاً من ارتكاب تصرّفاتٍ لا تليق بي كأخ أكبر مستبدّ في بيته. كان التناقض أبرز ما يكون عندما أكون مع آخرين، خاصة أصحابي الشباب، وعندما أصبح مع أختي أو أمي في الشارع أو عند الأقارب. كنت لا أزال محرجاً أفتّش عن شيء أقوله وأنا أتابع بأنظاري، من فوق الرؤوس المكدّسة وعبر النوافذ الزجاجية المغلقة المتّسخة، الشوارع اللاهثة تحت نزيف المطر. والنهر يظهر مع بداية شارع كورنيش النيل عند فم الخليج، ضيّقاً وداكناً ومنحسراً. دهمتني دهشة قابضة مخجلة. أليس هناك ما أقوله؟ وشقّ رأسي سؤال آخر – بدا أنه جاهز في رأسي منذ زمن طويل، ولكنه حادّ وغريب في الوقت نفسه –: كيف نعيش منذ وُلدنا تحت سقف بيت واحد، نرضع من ثديٍ واحد، ونأكل من طبق واحد، وننام في غرفة واحدة، ويسري في جسدينا دم واحد، ثم لا نجد في النهاية حواراً مشتركاً نتبادله؟! لكنها كانت الأبسط والأسرع، فبعد لحظات بدت فيها كما لو كانت تعالج خوفها الباطني مني كأخ أكبر متسلّط سألتني: هل أنا في إجازة طويلة أم مجرد يوم أو يومين؟ أجبت بسرعة وقد عثرت على خشبة تنقذني من بحر الصمت: إنني في إجازة قد تطول كثيراً. وأخذت أحكي لها – بنوع من الزهو المصطنع – أنّ قائد الوحدة التي جُنّدت فيها عندما عرف أنني أجيد الإنجليزية طلب مني أن أعطي بعض الدروس لابنه في شقتهم في القاهرة، الأمر الذي يعني أنني سأكون في إجازة ما دامت الدروس مستمرة.

ثم سكتّ فجأة وعدت إلى متابعة شريط النهر الذي يعدو أمامي، وكان قد اتّسع وبدا منسوبه أكثر ارتفاعاً بعد كوبري الملك الصالح. وتحت شمس العصر الخابية أثناء

انقطاع المطر لدقائق، كانت تتألق بعض دوائر الضوء الذهبيّة الصغيرة على سطح الماء. كنت قد توقّفت عن الاستطراد في حكايتي بعد أن شعرت بغصّة في حلقي كأنها خجل من خيلائي وتفاخري العالي الصوت بما حصلت عليه من أيام في القاهرة. وتذكّرت وقفتي في الوضع «انتباه» في «الأفرول» القذر بالرمال والعرق والحذاء المتقرّح جلده، تحته جورب مقطوع يفوح بالعفن، وأنا أذكر للضابط قائد الوحدة مؤهّلي الدراسي. واسترجعت النظرة الجشعة التي برقت في عينيه ولم أفهمها إلا عندما استدعاني لينفرد بي في مكتبه، ثم الطلب المباشر، ولكن في أسلوب رقيق لم أتصوّر أبداً أن يصدر منه، والسعادة التي تملّكتْني والترحيب الذي واجهت به طلبه. ثم الصورة التي بدت في خيالي عندما طلب مني الجلوس ليناقشني، بصوت رقيق ناعم، في التفاصيل. صورة مسجون سياسيّ يفشي أسراره. ثم الشعور الذي غمرني في العنبر المعتم العطن وأنا أبدّل ملابسي استعداداً للنزول إلى القاهرة. الشعور بأنني أخون زملائي.

فرملت سيارة الأتوبيس فرملة عنيفة في هذه اللحظة، ربما بسبب سيّارة جانحة على الأسفلت المبلّل، أو عابر طريق ضالّ. رفعت يدي بسرعة حتى لا أقع وأمسكت بكتفها. انتهت الفرملة وظلّت يدي على كتفها. شعرت بحنوٍّ ودفء انتقل من ملمس يدي لكتفها النحيل إلى قلبي. كانت قد التفتت نحوي التفاتة سريعة رقيقة ضاحكة من أثر الفرملة التي رجرجت الركاب جميعاً. عيناها عسليّتان وشعرها هائش ناعم قصير. ووجهها ناضر بملامح مترقرقة لأنثى لا تزال تتشكّل في زيّ المدرسة الكحليّ الغامق والقميص الأبيض المتكرمش تحت البلوزة.

وحقيبة المدرسة المثقلة بالكتب والكراسات على كتفها القريب تلتصق بصدري. كانت صغيرة وضعيفة ومرهقة ووحيدة، وسط هذا الزحام الخشن القبيح المريض. وغمرني الأسى.

ففي البيت لم تكن تلقى مني سوى المعاملة الرسمية الجافّة، إما طلب شيء أو السؤال عن شيء أو العتاب واللوم وأحياناً النهر والزعيق. المعاملة التي اعتدت عليها منذ طفولتنا، والتي كانت تعتبر أمراً طبيعيّاً مفروغاً منه في محيط الأسرة والعائلة والبيئة التي نشأنا فيها. (كل ما تألّمت بسببه فيما بعد وبكيت ندماً عليه وما زلت أتألم منه حتى الآن) لم نكن نخرج معاً ولم نتناقش معاً حول أمور حياتنا الخاصّة، ولم يكن هناك اهتمام يجمعنا نشترك فيه. (ربما لعبنا معاً أياماً قليلة ونحن طفلان، أما اليوم فحتى الأعياد لا تجمعنا).

كأنما كنت أهرب منها، من أمّي. أخشى أن أبدو رقيقاً معها بقدر ما أخشى أن أكون جافّاً مع الأصدقاء والأصحاب. لكني الآن أرى بوضوح كيف أنّ شيئاً ما كان ينمو بداخلي، في بطء يكاد لا يُلحظ، منذ سنوات، في هيئة خواطر ومشاعر لا تكاد تتّضح، تؤرّقني كوجع الأحلام. تتشكل في هدوء، تتجسّد ثم تبرق فجأة كالنور في وجداني كله: إنني أحبّها فوق كل شيء وأكثر من أيّ شيء. الحبّ الذي يبذل ويجود وليس الحبّ الذي يقهر ويجور. يدي على كتفها. أناملي تلمس أطراف شعرها المنسدل الناعم الخشن في الوقت نفسه.

أتخيّل أنني أنهيت فترة تجنيدي وعملت، وأنني من مرتّبي الكبير (كيف كنت واثقاً ساعتَها أنه سيكون كبيراً!؟) سأوفّر لها كل ما تحتاجه وعندما يتقدّم إليها ابن الحلال «سأجهّزها» للزواج، وأنني سأظلّ أحبها وأرعاها هي وأطفالها، وأحميها حتى من زوجها، الذي تصوّرته كمعظم الأزواج فظّاً أنانيّاً إلى أن نكبر ونشيخ ونصبح أخوين عجوزين يتحابّان حتى يفرّق بينهما الموت.

هذا الحنان الذي اهتاج في قلبي ساعتها، وسط الزحام الذي لا يطاق، على مرأى من النيل والمطر. والهواء المندّى المشبع برائحة الخصب يهبّ على وجهينا للحظات من نافذة مفتوحة سرعان ما يغلقها أحدهم. هذا الحنان الذي حال الواقع المرّ، والطبع الجافّ الذي يصعب التخلّص منه، دون أن يترجم كما ينبغي إلى أفعال، رغم أنني لا أزال أحسّه بين الحين والآخر، حين أفكّر فيها أو في أمي. حين تحتاجني إحداهما بشدّة، كأنه شعور بالتحرّر والتطهّر والنضج.

يومها حين غادرنا الأتوبيس ومضينا نحو البيت، نمشي بخطوات محترسة في الطين اللزج الكثيف الذي خلّفه المطر، وقد اتّسَخَ حذاءانا وأطراف بنطلوني وجوربها الأبيض بالماء والطين، وأنا أمدّ يدي إلى يدها، أمسك بها، أساعدها في العبور فوق أحد الأحجار، أسعدني أني التقيت بها، في مثل هذا اليوم السيّئ لأصحبها إلى البيت. إنه يوم لا أنساه.

الإسماعيلية (مصر)